

تمثلات النسق في الفحولة الشعرية  
قراءة نقدية ثقافية من منظور عبد الله الغدامي

## Pattern Representations in Poetic Virility A Cultural Critical Reading From Abdullah Al- Thaghmi's Perspective

\*سعيدة تومي<sup>1</sup>، مصطفى البشير قط<sup>2</sup>

Saida Toumi<sup>1</sup> mostefaelbachir. Gatt<sup>2</sup>

جامعة محمد بوضياف. المسيلة- الجزائر

University of M'sila

saida.toumi @univ-msila.dz<sup>1</sup>

mostefaelbachir.gatt@univ-msila.dz<sup>2</sup>

تاريخ النشر: 2021/03/30

تاريخ القبول: 2020/09/17

تاريخ الإرسال: 2020/05/04

### ملخص البحث

يتأسس النقد الثقافي بوصفه طرحا جديدا على إعادة قراءة الخطاب الأدبي ثقافيا بالتركيز أساسا على ما يضمه الخطاب وراء قناع اللغة الأدبية، وهو بذلك يمثل بديلا مختلفا يتجاوز حمولة البلاغة وبريقها إلى حدود أكثر إضاءة وأوسع تحليلا حيث تمتد اشعاعاته إلى البحث عن الأنساق المضمرة كاشفة عن وجه مغاير تماما، فقبحيات النص التي تختفي وراء جمالية اللغة غالبا ما ترسم علاقات ثقافية غير معلنة لتقول شيئا آخر يختفي وراء النسق الجمالي والأدبي في صور كثيفة. تروم هذه الورقة البحثية الوقوف عند مصطلح الفحولة الشعرية بدءا بالحديث عن تجلياته في العرف النقدي التراثي، ثم طرحه للمساءلة الثقافية بغية الكشف عن مضمرات خطابه النسقية. الكلمات المفتاح: نقد ثقافي، مضمر نسقي، فحولة شعرية، سلطة النسق.

### Abstract :

Cultural criticism is established as a new proposition to re-read the literary discourse culturally, focusing primarily on what is implied in the discourse behind the mask of the literary language, and thus represents a new alternative that transcends the load of rhetoric and its luster to more illumination and broader analysis as its radiations extend to the implicit patterns revealing a face that is completely different. The ugliness of the text

\*سعيدة تومي saida.toumi @univ-msila.dz

that disappears behind the aesthetic of language often depicts undeclared cultural relations to say something else that hides behind the aesthetic and literary style in intense images.

This research paper intends to stand at the term poetic virility, starting with talking about its manifestations in traditional critical tradition, and then putting it to cultural accountability in order to reveal the implications of its rhetoric.

**Keywords:** Cultural criticism ; Embedded modality ; Poetic virility; Patten authority



#### مقدمة:

لا شك أن الإبداعات الأدبية تطرح بدورها قفزات تجديدية تتناغم في فهرستها الفكرية ضمن توقعات الإبداعات النقدية، والنقد الأدبي في مناهجه وآلياته يجاهر أكثر مما يُنطن، فهو الذي يوجه الكاتب إلى البؤر الجوهرية التي تحفظ كيان الجنس الأدبي والفني والجمالي، ولذلك غالبا ما يقوم النقد ببيان سلبيات أو إيجابيات يمكنها أن تصقل تجارب الكاتب إلى حد لا يعرف فيه نفسه فيصير مغيبا بين تلاحق المنظورات وتصالب الرؤى، فوساطة النقد التي لم يطلبها أحد، تحفز الكاتب على التفكير فيما كان يريد قوله، وهنا تتعالى مفارقة عجيبة ومعقدة بين الشيء الذي يحسّه ويفكر فيه الأديب ليعث بأهازيجه في ترتيب فسيفساء أدبية يخطّها ضمن خريطة لغوية وبين زحم القراءات النقدية التي يحاكيها ويقتدي بها.

هذه الاستمرارية الدائمة للنقد جعلته يتعد بومضاته عن ديمومة الاستقرار وانحصار الرؤية النقدية ضمن زاوية واحدة، لذلك انبثق ما يسمى اليوم بـ "النقد الثقافي" الذي تمتد أواصره إلى الأنساق المضمرّة من خلال شرارة اللامرئي التي تضبّع الداخل، فيكون جدواه افتضاضا لمضامين النقد الأدبي وتجاوزا لها إلى أُفقٍ رحب تعلو فيه سلطة النسق على سلطة النص هذا الأخير الذي تنطوي ضمن مضامينه مضمرات نسقية شديدة الخفاء.

لقد انبثق النقد الثقافي بوصفه خطابا مغايرا يقوم على الكشف عن النسق المضمر الذي يفهرس المنظورات الفكرية مستبدلا البنية الأدبية المغلقة على نفسها بالبنية المفتوحة على ثقافتها المتفاعلة معها، ولأن الثقافة واقعة معقدة ومتشعبة ومتفاعلة على نطاق واسع مع القيم والأعراف والمعتقدات وتَمظهرات الحياة بكل تفاصيلها فإنّها الأكثر من غيرها قدرة على ترسيخ الرؤى

والمرجعيات الفكرية، بالإضافة إلى قدرتها على اختراق الحواجز واجتياز الموانع وترسيخ قيم الثقافة.

مما لا شك فيه أنّ نظرية النقد الثقافي قد أسهمت إسهاما كبيرا في إعادة قراءة النصوص الأدبية قراءة تفاعلية بالكشف عن التمثلات الثقافية والمعرفية التي تزخر بها النصوص الأدبية، إذ تعد من النظريات الجديدة التي عنيت بالدراسات الأدبية، والتي كشفت عن نجاعتها في قراءة النصوص وتحليلها والإفصاح عن تمثاتها المعرفية والجمالية، فهذه النظرية احتفت بالجانب الثقافي والدلالة النسقية للنص الأدبي عكس العديد من المناهج والنظريات السابقة التي ركزت على الجوانب الجمالية له، فالاهتمام بالثقافي أكثر من الجمالي ناتج عن حالات الانفتاح والوعي والتطور الذي وصل إليه النقد المعاصر، فقد سعت هذه النظرية إلى إجلاء الفُبحيات داخل النصوص الأدبية على عكس المناهج والنظريات النقدية السابقة التي مجدت الجماليات، فالهدف من هذه النظرية -على حد تعبير الناقد العربي الغدامي « يتمثل في تحويل الأداة النقدية من أداة في قراءة الجمالي الخالص، وتبريره بغض النظر عن عيوبه النسقية إلى أداة في نقد الخطاب، وكشف أنساقه، وهذا يقتضي إجراء تحويل في المنظومة المصطلحية »<sup>1</sup>.

تأسيسا على ذلك ارتأينا في هذه الورقة البحثية الوقوف عند مصطلح الفحولة الشعرية لرصد أولا ما أقرته المنظومة التراثية من مفاهيم وأسس لهذا المصطلح خاصة أنّها شكلت فلسفة جمالية وحُلماً جعلت الشعراء يتسابقون إلى نيل درجتها والسعي لاتصاف بها، فكانت بذلك علامة فارقة في الثقافة النقدية السائدة آنذاك. لنخصص الجزء الثاني من هذه الورقة لما قدّمته قراءات النقد الثقافي لهذا المصطلح، فحاولنا بذلك استجلاء سلطة النسق الثقافي في إنتاج خطاب الفحل الشعري .

\* فإلى أي مدى يمثل النقد الثقافي مرجعية لها قيمتها في قراءة المصطلحات التراثية؟

\* وما هي الإضافات التي يطرحها النقد الثقافي بوصفه خطابا مغايرا يسعى الى استنطاق مصطلحات ومفاهيم النقد التراثي؟

**أولا / الفحولة الشعرية في العُرف النقدي التراثي :** لقد أنتجت التجربة النقدية التراثية جملة من المفاهيم والمركبات الفاعلة في فهم الظاهرة الشعرية، سعيا منها لمقارنتها من جميع الجوانب (شعرا وشاعرا). وكان "الشاعر الفحل" منطلقا هاما وأساسا في تصنيف الشعراء، وإنزالهم المنازل

التي يستحقونها من منظور التلقي والانقياد الجمالي إلى جانب أثر المرجعيات التي لعب فيه عرف التلقي والقراءة دورا حاسما.

من هنا كانت هذه سمة الفحولة الشعرية شرطا أساسا في التفوق والتمايز والإبداع وحلم يسعى الشاعر لتحقيقه والاتصاف به في ظل الثقافة الشعرية المتداولة، « وكم كانت رغبته ملحة للتفوق في مواسم العرب الدينية والتجارية ومحافل شعرها وأسواقه »<sup>2</sup> سعيا منه لنيل شهادة الفحولة الشعرية من قُبة النابغة الذبياني « التي تحولت إلى محج للشعراء طلبا للشهرة والإقرار بها مع تواصل الاحتكام إلى الأذن المتذوقة للشعر قصد إثبات صحة الإبداع »<sup>3</sup>.

شكّلت الفحولة علامة فارقة في الثقافة النقدية السائدة آنذاك وانتقلت من دلالتها على الذكر من كل حيوان أو من دلالتها على النجم سهيل أو ذكر النخل أو ما إلى ذلك مما أفادتنا به معاجم اللغة<sup>4</sup>، إلى ميدان الشعر والشعراء لتوصف بها طبقة من الشعراء تميزت من غيرها في ميدان المهوبة الشعرية والإبداع الشعري. وهذا يعني عدولا في الدلالة وتحولاً في المفهوم اللغوي، وهذا التحوّل لم يتأثر بالبيئة البدوية المحيطة بالقوم آنذاك، أو يكونا نتاجاً لها فحسب، بل كان كذلك متأثراً بالحياة الاجتماعية السائدة التي كان يُعَلَّب فيها دور الرجل على دور المرأة، ويُنظر فيها إلى المجتمع على أنه مجتمع ذكوري أبوي، يسيطر فيه الذكر على الأنثى في الكثير من مجالات الحياة المختلفة.<sup>5</sup>

لقد كانت الفحولة من منظور الإحساس النقدي التراثي طاقة شعرية متميزة تحتاج إلى موهبة إبداعية، وقدرة كبيرة على أداء الفنون الشعرية المختلفة، كما أنّها تعني « طرازاً رفيعاً في السبك، وطاقة كبيرة في الشاعرية، وسيطرة واثقة على المعاني »<sup>6</sup>. إنّها لا تأخذ مدلولاً واحداً ولا صفة واحدة، لكنها شرط أساس في التفوق. فالفحل من الشعراء صفة للشاعر المتميّز القادر على مستوى المعاني والصيغ والأشكال الشعرية فاستحق منزلة الطبقات المتقدمة بين أقرانه من الشعراء الآخرين.

كما أنّ الوصول إلى سمة الفحولة الشعرية يتطلب جهداً كبيراً يبذله الشاعر ليصل إلى هذه المرتبة من التفوق والإبداع، وقد بيّن الأصمعي هذه الشروط: « لا يصير الشاعر في قريض الشعر فحلاً حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني، وتدور في مسامعه

الألفاظ، وأول ذلك أن يعلم العروض ليكون ميزاناً له على قوله، والنحو ليصلح به لسانه، ويقيم به إعرابه، والنسب وأيام الناس، ليستعين بذلك على معرفة المناقب وذكرهما بمدح أو بدم»<sup>7</sup> في ظل هذه الشروط (رواية الأشعار / سماع الأخبار / معرفة المعاني والأنساب / الإحاطة بالعروض والنحو وغير ذلك من علوم ومعارف يحتاج إليها الشاعر) تتحقق الشعاعية التي ينبغي أن يتصف بها الشاعر فيكون شعره متميزاً وخطابه فاعلاً يرقى على مستوى النص الفحل الذي لا يضاهيه نص آخر .

إنّ الفحولة الشعرية تقتضي قدرات خاصة وذاتية، ولكن استثمارها، لا يحصل إلا إذا اتكأ - حتى تكتمل شاعريته ونضجه - على أشعار أسلافه يرويها، فتوسّع آفاقه ويقف على المعاني التي لم تطرق والألفاظ التي تتعاود في انتاجات سواه.<sup>8</sup>

إننا نكتسب خبراتنا من وحي تجاربنا وتجارب الآخرين الأكثر فاعلية وسعة وثراء على مرّ الزمان وكذلك الفحولة الشعرية لا تكتسب فجأة ودون سابق ثقافة ولاوعي، فالشاعر عليه أن يستفيد من خبرات مختلفة ويكتسب معارف متعددة لتتشكل فحولته وتتفجر موهبته .

إنّ الفحولة الشعرية كمصطلح نقدي كانت علامة فاعلة ومرتكزا أساسا في تصنيف الشعراء إلى طبقات، فالنقد الذوقي يجعل من التفاوت سمة للشاعرية.<sup>9</sup> وغني عن البيان ما قدّمه ابن سلام الجمحي : « ففصّلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام، فنزلناهم منازلهم، واحتججنا لكل شاعر بما وجدناه له من حجة، وما قال فيه العلماء.. فاقترضنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعراً، فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه، فوجدناهم عشر طبقات أربعة رهط كل طبقة، متكافئين معتدلين».<sup>10</sup>

اقتصر ابن سلام على الفحول المشهورين من الشعراء، ولم يتجاوزهم إلى من لم يكونوا من الفحول، أو كانوا من الفحول ولكنهم لم يشتهروا بين الناس بأشعارهم، كما صنّف الشعراء حسب عصر كل واحد منهم وحسب الغرض الذي اشتهر به بالاعتماد على مبدأ الفحولة، فذكر طبقات الشعراء الجاهليين وأورد منهم عشر طبقات، في كلّ طبقة أربعة شعراء، ثم ذكر ثلاث طبقات لشعراء المراثي وطبقة شعراء القرى العربية وطبقة شعراء اليهود وطبقات الشعراء

الإسلاميين في عشر طبقات حتى العصر الأموي، غير أنّ الملاحظ أننا لا نجد أثراً للشعراء الذين عاصروه.

ظلّ الشاعر الفحل في منظومة النقد التراثي يعني التميّز والتفرد والتفوق . فالفحل هو من كانت « له مزية على غيره، كمزية الفحل على الحِقاق ».<sup>11</sup> الحقّة من أولاد الإبل التي بلغ أن يركب عليها، كما يلتقي معنى "الفحولة" بمعنى "الذكورة" فالفحل من الرجال هو الذي تأكدت ذكوره جنسيا، والفحولة الشعرية هي اكتمال الجودة.<sup>12</sup> إنّها تعني سمة خاصة تكسب الشاعر الأفضلية والسبق والبراعة في النظم.

إذن الفحل في الممارسة النقدية التراثية سمة خاصة بالشاعر الذي يملك أدوات إبداعية متقدّمة في القول الشعري معتمدا على ما للفحل من الإبل من صفات إيجابية تميزه من سواه، كما تميّز الشاعر الفحل بصفات إبداعية أهّلته ليكون في الطبقات المتقدّمة من الشعراء. إنّ صفة "الشاعر الفحل" تعني الشاعر المقتدر على قول الشعر الجيّد والمكثّر منه. أصبح لهذا المصطلح مرجعية في الذوق الشعري التراثي، هذا ما دفع بابن سلام الجمحي لأن يجعل الفحولة علماً على كتابه إذ وسمه بـ "طبقات فحول الشعراء".

تعني الفحولة الافتخار بالقوة وتقدير الشجاعة، والنفور من كل ما يعني الضعف، وكما أنه ينبغي أن يكون الرجل قوياً جسدياً، فكذلك يجب أن يكون الشعر متيناً في سبكه، محكما في نسجه هذا ما يبرز أثر البيئة الاجتماعية والثقافية في إقرار مصطلح الفحولة الشعرية، وهو ما يدل على عمق التفاعل والتأثر بين الناقد والبيئة التي يعيش فيها.

إن إقرار النقاد بوجود تفاوت بين الشعراء في المهوبة والأداء والإبداع الشعري، تؤكده الاستعانة بمصطلح الفحولة لتصنيف الشعراء في طبقات، بعد أن أولوا عناية خاصة بالفوارق والاختلافات التي تجعل الشعراء في درجات، وتميز بعضهم من بعض في طبقات.

ثانياً/المضمّر النسقي في النص الأدبي: يسعى النقد الثقافي - كطرح جديد ومغاير - إلى تحليل النصوص والخطابات الأدبية والفنية والجمالية في ضوء معايير ثقافية وسياسية واجتماعية وأخلاقية، بعيدا عن المعايير الجمالية والفنية. وبالتالي يعني النقد الثقافي بالمؤلف، والسياق والمقصدية والقارئ والناقد... الخ ومن ثمّ فالنقد الثقافي نقد إيديولوجي وفكري وعقائدي، يهدف إلى كشف العيوب النسقية التي توجد في الثقافة والسلوك، بعيدا عن الخصائص الجمالية والفنية.

ويعني هذا أن النقد الثقافي هو فعل الكشف عن الأنساق وتعرية الخطابات المؤسساتية، والتعرف على أساليبها في ترسيخ هيمنتها، وفرض شروطها على الدائقة الحضارية للأمة<sup>13</sup>.

يهدف النقد الثقافي إلى تذوق النص بوصفه علامة ثقافية لا مجرد قيمة بلاغية وجمالية، وذلك من خلال الكشف عن الأنساق المضمرة في الخطاب الثقافي، إنه يتعامل مع النص على أنه «حادثة ثقافية وليس مجتلى أدبيا فحسب»<sup>14</sup>. فلم يعد النظر إلى النظام الداخلي للغة وحده كافيا في البحث عن معنى النص، لأنّ الدلالة اللغوية لا تقدّم إلا المعنى الظاهر في حين يبقى ما يحمله من مضمرات اجتماعية وأعراف تاريخية وسياسية ونظم اقتصادية بعيدة عن الكشف والتعري بفعل التعمية البلاغية للخطاب الأدبي.

إنّ القراءة الثقافية للنصوص الأدبية هي آلية تعمل على قراءة النص وفق معطيات الثقافة السائدة في المجتمع لهذا «تسعى القراءة الثقافية إلى إعادة قراءة النصوص الأدبية في ضوء سياقاتها التاريخية والثقافية، حيث تتضمن النصوص في بنائها أنساقا مضمرة ومخاتلة قادرة على المراوغة والتفنع ولا يمكن كشفها أو كشف دلالاتها النامية في المنجز الأدبي إلا بإنجاز تصوّر كليّ حول طبيعة البنى الثقافية للمجتمع»<sup>15</sup>.

فالنص الأدبي - وفق هذا المنظور- يغدو دالا على الثقافة ويستمد قوته بحلول المدلول وحضوره فيه، وهو كذلك مادة ثقافية تختزل السلوكيات والممارسات والمفاهيم الثقافية السائدة في عصر المبدع والعصور السابقة في لغة مراوغة لا تستقر على معنى.<sup>16</sup>

إنّ النقد الثقافي لا يقصي الخطاب الأبي كنص ابداعي ولا يلغي الآثار الاجتماعية والنفسية له، و إنّما يأخذ النص من حيث ما يتحقق فيه من مضمرات نسقية تكشف عن أعراف ثقافية كامنة خلف البناء اللغوي.

وبذلك يغدو النص حالة ثقافية إضافة إلى حالتها الأدبية الجمالية، ذلك أنّ دلالاته المضمرة ليست مصنوعة من مؤلف، و لكنها منغرس في الخطاب، مؤلفتها الثقافة ومستهلكوها جماهير اللغة على تعدد مستوياتهم الفكرية والثقافية والاجتماعية وبذلك فهي لا تنتج عن قسدية المبدع ولكنها تعكس الثقافة بتجلياتها المختلفة والمتعددة.<sup>17</sup>

أ/ تمثّلات النسق الثقافي في "الفحولة الشعرية" من منظور عبد الله الغدامي :

يعدّ الباحث عبد الله الغدامي أكثر النقاد العرب الذين عملوا على النقد الثقافي، وعنوا بتطبيق آلياته ومبادئه على الثقافة العربية كما يعدّ كتابه "النقد الثقافي/ قراءة في الأنساق الثقافية العربية" أول دراسة تشرح هذا النشاط الفكري نظريا ومعرفيا وممارسة.

لقد كان كتابه "النقد الثقافي" محاولة فريدة لفهم العيوب النسقية في الشعر العربي - بصفته ديواننا- والخطاب الأبرز للأمة العربية، عبر تتبع منافذ هذه العيوب في كتب التاريخ ومدونات الشعر حتى ينتهي للشعر المعاصر وقضية الحداثة.

في هذا السياق نحاول الاستعانة المنهجية والنقدية بما قدّمه النقد الثقافي كطرح جديد ومغاير لمقاربة مصطلح الفحولة الشعرية، نؤسس بها لنقد جديد يكشف معطيات معرفية أخرى تتجاوز حدود النص الشعري إلى ما يضمه من أنساق ثقافية.

ارتبط الشعر الذي ارتبط إلى حد كبير بالأمة العربية فأصبح جزءا منها كاشفا عن هويتها حاملا لفكرها وتاريخها وأحداثها، حتى أضحي يحيل إلى ثقافتها، ليتحول بذلك إلى نسق ثقافي يعكس الأمة العربية وفي هذا السياق يشير الغدامي في دراسته المذكورة إلى أنّ أحد الأصول النسقية في ثقافتنا العربية وهو نسق الشخصية الشعرية، ليؤكد أنّها « الصفة التي مازلنا نتباهى بها ومنتسب إليها بحق وصدق فنحن كائنات شعرية ولا شك، غير أن هذا ليس خبرا جميلا كما ظللنا نعتقد، بل إن كتابنا هذا سيزعم أن ما اكتسبناه من السمات الشعرية قد طبع ذاتنا الثقافية والإنسانية بعيوب نسقية فادحة، مازلنا ننتجها ونعيد انتاجها ونتحرك حسب شرطها ولعلها هي المسؤولة عن كثير من عوائقنا الحضارية »<sup>18</sup>.

غير أنه مع ذلك يشير إلى أن صعوبة هذه المقاربة نظرا للحصانة التي اكتسبها الخطاب الشعري العربي، التي جعلت نقده نوعا من المحرمات الثقافية بحجة تعالي الشعرية وتفردا مما يقتضي التعامل معها بخصوصية.<sup>19</sup>

إنّ الشخصية الشعرية - كما يؤكد الغدامي - نسق ثقافي مترسخ فينا، ونحن نعيد ترسيخه عبر تمثله في الخطاب وفي السلوك، ولطالما كان الشعر ومازال هو المهيمن على النسق الثقافي العربي وهو الفاعل الأخطر في تكوينه أولا وفي ديمومته ثانيا.<sup>20</sup>



يهمنا هنا أن نقف الأنا الفحولية، ونحاول أن نرصد تحولات مصطلح "الفحل" في ضوء ارتباطها بمفاهيم النقد الثقافي المعروف أن الشعر لطالما كان علم العرب ولم يكن لهم علم أصح منه كما يتكرر في نصوص المدونة النقدية التراثية في سياقاتها العرفية والثقافية، وهو - حسب الغدامي - : « توصيف موضوعي صادق يصف الحال الثقافية للعرب مما جعل الشعر ديوان العرب، وسجل وجودها الانساني والتاريخي ... وهذا لم يجعل الشعر مصدرا علميا وتاريخيا فحسب بل جعل له قيمة أخلاقية بما أنه ديوان المآثر وسجل الأخلاق ». <sup>21</sup> إنه نص ثقافي بامتياز لا يحتاج إلى تأشيرة للدخول إلى حياة الناس الخاصة (بجالس السمر والمناظرات) والعامية ( الأسواق والمساجد) بحكم أنه سجل لقيّمهم بل وعنوان لوجودهم الثقافي والحضاري. <sup>22</sup>

هذا ما أكسب هذا الخطاب شرعية الاقتداء، فتحول الشعراء إلى نماذج بشرية تحتذى أقوالهم وحتى أفعالهم، لتكون نماذج سلوكية تؤثر في النفس والمجتمع، وأصبح الشعر في النهاية صورة العربي النسقية والثقافية، فلا صفة للعرب من دون قول الشعر.

على الرغم من أن الشعر يكتسي جماليات كثيرة لا يمكن أن ينكرها أحد، مما يعني بالضرورة أننا سنستلهم منه نماذجنا في الفعل وفي التصور، إلا أنه مع ذلك يحمل صفات أخرى لها من الضرر ما يجعل الشعر أحد مصادر الخلل النسقي في تكوين الذات وفي عيوب الشخصية الثقافية لأننا في النهاية سنتمثل سيئاته مثلما نتمثل حسناته كما يذهب الغدامي. <sup>23</sup>

ولأننا في ضوء منظومة النقد الثقافي نبحث في عيوب الشخصية الثقافية العربية التي رسخها الشعر، وثبت وجودها في ظل جملة من الأفكار التي كان أولها صورة الأنا الفحولية أو الشاعر الفحل، الذي « ابتداء فحلا شعريا غير أنه تحوّل ليكون فحلا ثقافيا يتكرر في كافة الخطابات والسلوكيات الاجتماعية والثقافية والسياسية، وما ذاك إلا لأن الشعر في الأصل هو علمنا وديواننا وما يحدث فيه يصبغ شخصيتنا، ويؤثر في تكويننا وتوجيه سلوكها وسيكون مسؤولا عن سماتنا الشخصية بمثل ما هو مستودع ثقافي لهذه السمات، ومرور ذلك من دون نقد هو ما جعل الشعرية علة ثقافية تتحكم فينا من دون مساءلة أو مواجهة ». <sup>24</sup>

والحقيقة - كما يعتقد الغدامي - أنّ كل ذلك ظلّ يحدث من زمن الجاهلية وانبعاثها النسقي إلى زمن بني أمية، وتعزز في زمن التدوين إلى يومنا هذا، وكلّ القيم التي صنعتها منظومة

الشعر تحوّلت في نهاية الأمر لتكون قيّما للذات العربية الثقافية ومنظومة السلوك الاجتماعي العربي، فتشعرت الذات العربية وتشعرت القيم معها.<sup>25</sup>

ولأن النقد الثقافي يسعى إلى أن يسهم في مناقشة النصوص الأدبية بوصفها صورة عاكسة لبعض تيارات المجتمع والثقافة، و حتى تبقى في إطار الحديث عن التراث العربي ومدى أهمية مصطلحات النقد التراثي على هذا المستوى، ذلك أنّ « النص الشعري العربي القديم ... نص ثقافي نسقي، يتوسل بجماليات اللغة وتشكيلاتها الاستعارية المراوغة بغية بناء عوالم وفضاءات نسقية لا متناهية »<sup>26</sup>.

من هنا سنسعى إلى عرض جملة التصورات التي حملها النقد الثقافي لمصطلح (الفحولة الشعرية) فقد كان (اختراع الفحل) - حسب الغدامي - من أخطر المخترعات الشعرية / الثقافية وهو مصطلح ارتبط بفكرة الطبقة (طبقات فحول الشعراء)، كما ارتبط بالتعالي والتفوق والتفرد (الشعراء أمراء الكلام) وارتبط أيضا بتوظيف اللغة توظيفا منافقا ( تصوير الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق)<sup>27</sup>.

و ليؤكد الغدامي الطرح الثقافي في الفكر العربي يقدم بيتا من الشعر لجرير قال فيه :

أَنَا الدَّهْرُ يُعْنَى المَوْتُ والدَّهْرُ خَالِدٌ \*\*\* فَجِئَنِي بِمِثْلِ الدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهُ<sup>28</sup>

يشرح الغدامي ذلك مؤكداً أن قول جرير يستند إلى رصيد ثقافي متجذر تقوم فيه الأنا مقاماً أساساً وجوهرياً، و يعتمد الخطاب على هذا الأنا اعتماداً مصيرياً إلى درجة يصبح معها هذا القول هو الجملة الثقافية، ليس للشاعر فحسب وإنما للثقافة ككل.<sup>29</sup>

كما يضيف الغدامي في السياق نفسه أنّ الأنا هذه ليست أنا جرير فحسب ولكنها الأنا النسقية / الثقافية المغروسة في ذهن جرير، وبدوره يزيد من دورها وتعميمها، ولهذا كان احتفاء المدونين والكتّاب بهذه الأنا لأنها تمثل نسقا مشتركا وليست الأنا الجريرية فحسب.<sup>30</sup>

إنّ بيت جرير سالف الذكر هو في حقيقته ديالوج ثقافي - على حد تعبير الغدامي - أي أنه جاء ردّاً على بيت قاله الفرزدق قبل ذلك مما يعني أنه خطاب نسقي.<sup>31</sup> وقد كانت البداية مع الفرزدق حين قال :

فَإِنِّي أَنَا المَوْتُ الَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ \*\*\* بِنَفْسِكَ فَانظُرْ كَيْفَ أَنْتَ مُحَاوِلُهُ<sup>32</sup>

وحلف بالطلاق أن جريرا لا يغلبه فيه، فكان جرير يتمرغ في الرمضاء، و يقول : أنا أبو حزره حتى قال : أنا الدهر...<sup>33</sup> جوابا على بيت الفرزدق.

والمأمل لهذه الحادثة كما يرى الغدامي - يلاحظ في يسر- تحوّل الخطاب من الجملة الواقعية الحقيقية في قول جرير(أنا أبو حزره) إلى الجملة الثقافية / النسقية (أنا الدهر) في مقابل المرادف النسقي (أنا الموت).<sup>34</sup>

حين يقول الغدامي هذا الكلام فهو بذلك يضع جملة جرير في سياقها الثقافي الذي تولدت فيه، والأصل للأنا الشعرية / الفحولية النابعة أصلا من (النحن القبليّة) وهي (النحن) المتضخمة والنافية للآخر بالضرورة.<sup>35</sup>

في ضوء هذا النموذج يرصد الغدامي ملامح الوجه المعيب ويكشف عن القيم التي يخفيها هذا الواقع الشعري من خلال توظيف جمل وعبارات لا تدل على الشخص الفرد بعينه وإنما تعبر عن تضخم الفرد ليصبح ذاتا جماعية، تحمل أنساقا ثقافية كترسها الشعر كفن والواقع كحقيقة ثابتة في موروثنا العربي.

من هنا كانت « شخصية الفرد المتوحد فحل الفحول ذي الأنا المتضخمة النافية للآخر...هي من السمات المترسخة في الخطاب الشعري، ومنه تسربت إلى الخطابات الأخرى، ومن ثم صارت نموذجا سلوكيا ثقافيا يعاد انتاجه بما أنه نسق منغرس في الوجدان الثقافي، مما ربي صورة الطاغية الأوحده ( فحل الفحول) ». <sup>36</sup>

من هذا المنطلق يتحمّل الشعر مسؤولية كبيرة في ترسيخ قيم سلبية ( الأناانية وحب الذات / إلغاء الآخر وتقزيمه ) سادت وستسود المجتمع، تنعكس دون وعي في تصرفات الأفراد وحتى الجماعات ما يعزز النسق الثقافي عبر الأجيال.

يضيف في إطار عرضه لشخصية الفحل الشعري في الموروث العربي عبر تقديمه لأنموذج من الشعر الجاهلي ممثلا في معلقة عمرو بن كلثوم، ومن أبياتها الآتي <sup>37</sup> :

لَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أَمْسَى عَلَيْهَا \*\*\* وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا

بُعَاةَ ظَالِمِينَا وَمَا ظَلَمْنَا \*\*\* وَلَكِنَّا سَبَبُ ظَالِمِينَا

(...)

وَنَشْرَبُ إِذَا وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْوًا \*\*\* وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدْرًا وَطِينَا

وَنَحْنُ الْحَاكِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا \*\*\* وَنَحْنُ الْعَازِمُونَ إِذَا عُصِينَا  
أَلَا لَا يَجْهَلَنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا \*\*\* فَجَهْلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

إنّ النصّ حادثة ثقافية نسقية ولهذا تكتسب أنساقه خاصية الانفتاح على فضاءات في الثقافة والإيديولوجيا والتاريخ، بحيث تُلاحظ هذه المعطيات دون أن تكون متعالية على بنية الخطاب، بوصفها بنية نصيّة مثل اللغة المشكلة للنصّ بالإضافة إلى كونها نموذجاً للتمثيل أو للفجوات النصيّة.<sup>38</sup>

والملاحظ أنّ هذا النموذج يمثل جملة من الطرح الثقافي /الإيديولوجي المكونة للنسق الاجتماعي ويكرّس فيها تضخيم الذات وإلغاء الآخر، وهذه الجملة النسقية يغرسها النسق الشعري المهيمن والمشعرن لكل سماتنا الشخصية الثقافية.<sup>39</sup>

يعدّ النصّ الشعري تشكيلاً جمالياً ثقافياً في آن واحد حيث تصبح المعطيات البلاغية أدوات مؤثرة تحفز المحلل الثقافي على اكتناه المدلولات النسقية في بنية النصّ الشعري.<sup>40</sup>

في ضوء النصّ السابق - يؤكد الغدامي - أنّ القيمّ الناسخة للآخر التي ترى أن المكانة المعنوية لا تتحقق إلا بإلغاء الآخرين وهذا الإلغاء لا يتم إلا عبر الظلم، وهذه قيمة جاهلية مركزية، ألم يقل زهير بن أبي سلمى في منظومته الحكمية القيمية (ومن لا يظلم الناس يُظلم) ثم إنّ هذا الظلم جوهر قيمي وليس رد فعل ظريفي، فهم بغاة ظالمون بطبعهم الذي تؤسس له القصيدة (بغاة ظالمينا وما ظلمنا \*\*\* ولكننا سنبداً ظالمينا) والفرد الواحد منهم مهما كان صغيراً أو حقيراً فإنه يفوق أي آخر من غيرهم مهما كان موقع ذلك الآخر، والرضيع الفطيم تحر له الجبابر ساجدين، هؤلاء الذين يملكون الدنيا وقدرتهم هي قدرة البطش، حتى لا أحد يشرب صافياً سواهم وللآخرين الكدر، والعلاقة التي تربطهم بالآخرين هي في خوف الآخرين منهم.<sup>41</sup>

إنّ الشاعر يقدّم رؤيته ورؤية قبيلته التي تؤسس لنسق الثقافة المحيطة به والمفارقة لرؤية الآخرين فالبطش والظلم والجهل تضحي قيماً إيجابية إذا كان الهدف منها سامياً ونيلاً، بحيث تحمي هذه القيمّ دمار القبيلة، و بما أنّ الشاعر يفترض في الأخر على الدوام أمارات السوء والظلم فإنّ البدء بقمع هذا الأخر وإقصائه يمثّل سياسة أو تحركاً ذكياً في وأد الشر قبل أوانه.<sup>42</sup>

يتعزز النسق القائي في ضوء هذا الضرب من الأشعار التي يبقى يرددها الأجيال، فالفخر يولد الأنانية وحب الذات وإقصاء الآخر المختلف، من هنا تتغذى الثقافة المجتمعية عبر الأزمان بفعل رسوخ هذه القيم الإنسانية التي غالبا ما ينعكس تأثيرها في سلوك الفرد. ففي الوقت الذي تعبر فيه - في نسقتها الظاهر - عن الثقة بالنفس والفخر بالأجداد والأجداد، نراه تغرس فينسقتها المضمرة قيم الأنانية وإلغاء الآخر وعدم تقبل الغير.

من هنا فإنّ « تضخيم " الأنا القبليّة " في المعلقة هو إلغاء لما دوّنها، وانغلاق على النظام القبلي وتثبيت لقيمه وصون لصرامة هرمية بنائه. إنّها دعوة صريحة إلى الإلغاء والتدمير، وإعلان صارخ بأنّ " الآخر هو الجحيم " ( أنى كان هذا الآخر) وبالتالي لا مجال للتعايش معه في حالة العصيان " القبلي" والتمرد على قيمة الطاعة التي تخترق "جسد" المجتمع العربي منذ العصور القديمة إلى الوقت الراهن » .<sup>43</sup>

بناء على ما سبق يتضح أن الشعر العربي قد أسهم سلبا إلى حد كبير في ترسيخ جملة من القبحيات، في صورة من التوظيف الجمالي الفني: « الشعر العربي عبر امتداده الطويل لعب دورا لا ينبغي التقليل من شأنه في تمرير رصيد لا يستهان به مما كان يسميه ابن رشد بـ "القيم الشريفة" المساهمة في ترسيخ صورة الطاغية، عبر "شعرنة" قيمه حتى صارت سلوكا اجتماعيا وسياسيا "رسميا" ومميزا للشخصية العربية » .<sup>44</sup>

إذن كشفت الاستعانة بمفاهيم النقد الثقافي عن جملة من السلوكيات السلبية التي تسربت في الخطاب الشعري العربي منذ الأزل ومازالت تلقي بظلالها على الأجيال والأمة العربية ولهذا كان لا بد لـ « القراءة النقدية لمنظومة القيم في الثقافة العربية، وللأنساق التي تكونها يستوجب فضلا عن رصد للقيم الإيجابية، رصد موازيا للقيم غير الإيجابية حتى تكتمل الصورة لمكونات هذه المنظومة الأخلاقية - كما هي - »<sup>45</sup>.

إنّ مصطلح "الفحولة الشعرية" الذي فاحرنا به في فكرنا التراثي، لكونه امتدادا للفحولة الجنسية أو الذكورية بشكل عام، وظل يعني استمرار إعجاب العربي بالقوة، وتقديره للشجاعة، ونفوره مما هو ضدها من ضعف، فكما ينبغي أن يكون الرجل قويا جسدياً، فكذلك يجب أن يكون الشعر قويا في ألفاظه، متيناً في سبكه، رصيناً في عبارته، وفق ما أقرته سلطة الذوق الشفاهي / الجاهلي.

إلا أنه مع قراءات النقاد المعاصرين - وتحديدًا الباحث عبد الله الغدامي - في ضوء مقولات النقد الثقافي تحوّل إلى مشروع لصناعة الطغاة في الفكر والمجتمع العربي، لأنه يسعى - في مجمله - إلى تضخيم الذات وتقزيم الآخر وحتى إغائه من الوجود. إنّه يشكّل طاقة إيجابية للشاعر القائل ولكنه ينتج في المقابل طاقة سلبية لدى المتلقي.

تعمل مثل هذه النماذج التي تعزز وتشجع على التمثل بـ " الفحل " على جعل الفرد والمجتمع رهين الفكر الطاغوي المتسلط، لأنّ ذلك لن يقتصر على الشعر والإبداع فقط وإنما سيشمل مختلف جوانب الحياة الإنسانية سواء الثقافية أو السياسية وبذلك تحولت الفحولة الشعرية من دلالتها على الشاعر المقتدر القابض على مكنونات الموهبة الشعرية إلى مشروع لصناعة الطغاة في العالم العربي لأنه دائماً يسعى إلى إقصاء الآخر وتقديس الذات وتقزيم الآخر، وهذا ما يغذي الشعور بالدونية وعدم المساواة بين أفراد المجتمع الواحد.

#### خاتمة:

إننا نقف أمام معطيات مغايرة تماماً انبثقت من مقولات النقد الثقافي وهي قراءات خالفت القراءة النمطية لأنها بحثت في الوظيفة النسقية لشعر فحول الشعراء، لكن قراءة الغدامي وعلى الرغم من جديتها وطرافتها واحتكامها إلى منهج ذي أصول غربية في معالجتها لقضايا موروثنا النقدي لا يمكن ردها جملة وتفصيلاً في غياب الثقافي لصالح العربي والسياسي، إلا أنّها في الآن ذاته لا يمكنها تلغي - هكذا - وبطريقة فاقدة للتأني، لجملة الأرصدة الشعرية التي برز أصحابها مصطلح الفحل والفحولة، من خلال التأكيد على أنّ الشعراء متفاوتون وأنّ الفحولة حالة نسبية وأنّها إقرار واضح أنّ الإبداع بقدر ما هو موهبة، فإنّه جهد وصبر، مواقف واستغلال لطاقت القول ولغته ورؤاه، من هنا يأتي تبرير التراثي في مقابل مفردات النقد الثقافي.

ويبدو لنا ما طرحه الغدامي من خلال تشريحه للشعر العربي أمراً مبالغاً فيه وحكم عام على الشعر العربي، فلا يمكن أن نقزّم شعرنا العربي بكامله في خانة في الاستكبار والتعالي واستصغار الآخر، ففيه من الحكمة والزهد والكرم والشجاعة ونصرة المظلوم ما يحمل لنا الكثير من القيم الإيجابية. إنّ ما أسس له الغدامي لا يعدو أن يكون جزءاً يسيراً من الشعر العربي لا يخضع للتعميم ولا يقاس بحجم تاريخ الشعر العربي.

هوامش:

- <sup>1</sup> - عبد الله الغدامي: النقد الثقافي : قراءة في الأنساق الثقافية العربية، الدار البيضاء، (بيروت)، الطبعة الثالثة، 2005 ص:8.
- <sup>2</sup> - مصطفى درواش: وجه ومرايا / المنظومة النقدية التراثية، دار ميم للنشر (الجزائر)، ط1، 2014، ص321.
- <sup>3</sup> - المرجع نفسه، ص 321.
- <sup>4</sup> - جاء في لسان العرب: " الفحل: الذكر من كل حيوان، وجمعه أفحل وفحول وفحولة وفحال وفحالة ورجل فحيل: فحل.. والفحيل: فحل الإبل إذا كان كريماً منجماً... وكبش فحيل: يشبه الفحل من الإبل في عظمه ونبله... والعرب تسمي سهيلاً الفحل تشبيهاً له بفحل الإبل، وذلك لاعتزاله عن النجوم وعظمه... والفحل والفحال: ذكر النخل.. ولا يقال لغير الذكر من النخل فُحَال..".
- ينظر: محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، مج 10- مادة ( فحل) - دار صادر للطباعة والنشر- ج10- ط5 - بيروت -2005، ص135- 136.
- <sup>5</sup> - ينظر: حمود حسين يونس: في ارهاصات المصطلح النقدي القديم، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، العدد101، 2006- ص2.
- <sup>6</sup> - احسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، (الأردن)، ط2، 1993، ص41.
- <sup>7</sup> - ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، (لبنان)، ج1، ط5، 1981، ص 197- 198.
- <sup>8</sup> - ينظر: مصطفى درواش: خطاب الطبع والصناعة / رؤية نقدية في المنهج والأصول، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، (سوريا)، 2005، ص 94.
- <sup>9</sup> - ينظر: مصطفى درواش- وجه ومرايا / المنظومة النقدية التراثية، ص305.
- <sup>10</sup> - ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، قراءة وشرح محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، (مصر)، ط2، ص23- 24.
- <sup>11</sup> - الأصمعي: فحولة الشعراء، تح: ش توري، دار الكتاب الجديد، (لبنان)، ط2، 1980، ص5.
- <sup>12</sup> - ينظر: توفيق الزبيدي: مفهوم الأدبية في التراث النقدي، منشورات عيون، الدار البيضاء، (المغرب)، ط2، 1987، ص20.
- <sup>13</sup> - ينظر: جميل حمداوي: النقد الثقافي بين المطرقة والسندان- مقال نقدي في الموقع الإلكتروني <http://www.diwanalarab.com> نشر بتاريخ 2012/07/08.
- <sup>14</sup> - عبد الله الغدامي: النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص65.

- <sup>15</sup> - يوسف عليمات : لنسق الثقافي / قراءة في أنساق الشعر العربي القديم، عالم الكتب الحديث، (الأردن)، ط1، 2009، ص11.
- <sup>16</sup> - ينظر : عبد الفتاح أحمد يوسف : قراءة النص وسؤال الثقافة، عالم الكتب الحديث، (لبنان)، ط1، 2009، ص15.
- <sup>17</sup> - سعيدة تومي، المضمرة النسقي في شعر المتنبي، مقال ضمن الكتاب الجماعي : النقد الثقافي / قضايا ورؤى، تأليف مجموعة من الباحثين الأكاديميين، تقلتم : سعيدة تومي، منشورات ألفا للوثائق، ط1، 2020، الجزائر، ص27، 28.
- <sup>18</sup> - عبد الله الغدامي : النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية - ص87.
- <sup>19</sup> - ينظر : المرجع نفسه، ص89.
- <sup>20</sup> - ينظر : المرجع نفسه، ص93.
- <sup>21</sup> - عبد الله الغدامي : النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية - ص97.
- <sup>22</sup> - ينظر: ادريس جابري : الحداثة السياسية ومسألة القيم في الثقافة العربية، مجلة علامات، ج55، ص14-2005- ص427.
- <sup>23</sup> - ينظر : عبد الله الغدامي : النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، ص98.
- <sup>24</sup> - المرجع نفسه، ص119.
- <sup>25</sup> - ينظر : المرجع نفسه، ص119.
- <sup>26</sup> - يوسف عليمات : النسق الثقافي / قراءة في أنساق الشعر العربي القديم، ص2.
- <sup>27</sup> - ينظر : عبد الله الغدامي : النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، ص119.
- <sup>28</sup> - جرير بن عطية بن كليب التميمي - ديوان جرير - تح: محمد إسماعيل الصاوي - مطبعة الصاوي - مصر - 1935- ص37. وينظر أيضا : ابن رشيقي القيرواني : العمدة في محاسن الشعر، ج1- ص209. و ينظر : عبد الله الغدامي : النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية - ص119-120.
- <sup>29</sup> - ينظر : عبد الله الغدامي، النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص120.
- <sup>30</sup> - ينظر : المرجع نفسه، ص120.
- <sup>31</sup> - ينظر : المرجع نفسه، ص120.
- <sup>32</sup> - همام بن غالب بن صعصعة الملقب بالفردق - ديوان الفردق تح : علي فاعور - دار الكتب العلمية ط1- 1987 - ص127.
- <sup>33</sup> - ابن رشيقي القيرواني : العمدة في محاسن الشعر، ج1، ص209.
- <sup>34</sup> - ينظر : عبد الله الغدامي : النقد الثقافي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، ص120.
- <sup>35</sup> - ينظر : المرجع نفسه، ص120.



- <sup>36</sup>-المرجع نفسه، ص93-94.
- <sup>37</sup>-ينظر : عبد الله الغدامي : النقد الثقائي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، ص121-122. و الأبيات في كتاب الزوزني : شرح المعلقات السبع، معلقة عمرو بن كلثوم، تح: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، (لبنان)، د ط، 2001، ص184، ص 194.
- <sup>38</sup>- ينظر : يوسف عليمات، النقد النسقي / تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2015، ص20.
- <sup>39</sup>-ينظر : عبد الله الغدامي :النقد الثقائي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، ص122.
- <sup>40</sup>- ينظر : يوسف عليمات : النسق الثقائي / قراءة في أنساق الشعر العربي القلم، ص121.
- <sup>41</sup>-ينظر : عبد الله الغدامي : النقد الثقائي / قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، ص122-123.
- <sup>42</sup>- ينظر : يوسف عليمات، النقد النسقي / تمثيلات النسق في الشعر الجاهلي، ص 94.
- <sup>43</sup>-ادريس جابري : الحداثة السياسية ومسألة القيم في الثقافة العربية، ص 435، 436 .
- <sup>44</sup>- المرجع نفسه، ص 435، 436.
- <sup>45</sup>-المرجع نفسه، ص423.